# سقوط الأندلس من منظور السنن الإلهية

د. رشيد كهوس
أستاذ السيرة النبوية
وعلومها كلية أصول الدين
جامعة القرويين

إن قصة سقوط الأندلس قصة مؤلمة جدا؛ تؤلمنا أحداثها، وتؤلمنا أرواح الأعداد الهائلة من الشهداء الذين سقطوا على أرضها، ويؤلمنا النساء اللواتي انتهكت أعراضهن، ويؤلمنا الخونة الذين خانوا أمتهم من بني جلدتنا... ويؤلمنا أننا فقدنا بفقدها تاريخًا عريقا ومجدا تليدا، ونحن نعلم أن هذا المجد وذاك التاريخ قد انتهى وضاع، وصارت الأندلسُ الفردوسَ المفقود.. إلا أنه لابد من قراءة هذا التاريخ والمجد وكيف ضاع، وكيف سلب منا، وكيف سقطت الحضارة الأندلسية بعد بناء دام قرونا عديدة، إنه ولا شك بقراءتنا السننية لتاريخ الأندلس نصل إلى نتيجة هامة ونافعة للأمة في حاضرها ومستقبلها، نتيجة كيف تقام الأمجاد وكيف تسقط، نتيجة كيف تبنى الحضارات وكيف تهدم، نتيجة كيف تشرق شمس أمة وكيف تغيب، وكيف يبزغ فجرها وكيف يأفل.

ولقد خصص القرآن الكريم جانبا كبيرا من سوره لعرض قصص الغابرين، لينبهنا ويلفت أنظارنا إلى ما آلت إليه تلك الأمم من تغير أحوالها إيجابا أو سلبا؛ حين اختارت لنفسها طريقا معينا، ولينبهنا كذلك إلى أن المجتمعات البشرية محكومة بنوع من السنن والنواميس المطردة الثابتة العامة، التي تضبط حركتها وتطورها، وتحدد مصيرها في النهاية.

"هذه السنن لها وظيفة اجتماعية هامة فهي تكشف عن أسباب الخلل وتزيل الستار عن أسباب الدمار وتثير في الإنسان فطرة الخير والصلاح، وتدعوه إلى الاستقامة ومراجعة مواقفه ووقفاته والعمل على ضبط حركاته. ومن جهة تكشف هذه السنن عن تجربة تاريخية كاملة تجد فيها الشعوب والجماعات ما ينير طريقها ويفتح بصيرتها للوقوف على نتائج اختيارها"[1].

وبناء على ذلك؛ فإن النواميس التي يتحدث عنها القرآن الكريم تتميز بأنها نواميس مطلقة صالحة لكل زمان ومكان، متى توفرت مقوماتها وتحققت شروطها الموضوعية في الزمان والمكان. فهي عامة. يقول رب العزة جل وعلا: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ

عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[سورة النساء:26].ويقول جلت عظمته: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[ سورة آل عمران:137].

إن تاريخ الأندلس بصفحاته الطويلة تظهر فيه سنن اللّه في النصر والهزيمة والقيام والسقوط جلية واضحة.. وفيه من الدروس والعبر الكثير الكثير..

سنقف عند أهم سنن الهزيمة والانكسار والسقوط في هذه الدراسة عساها ترفع الهمة وتفيد الأمة فتشق طريقها نحو النصر والتمكين واسترجاع الأندلس وكل ثغر من ثغورها...

لقد كانت سنن انحدار وسقوط وضياع الأمم قد تشابهت إلى حدٍّ كبير في كل فترات الضعف في تاريخ الأندلس، وهذه السنن نفسها قد زادت وبشدّة في فترة سقوط غرناطة؛ ولذلك كان السقوط كاملاً وحاسمًا؛ وكان من هذه السنن ما يأتي:

**إنه ولا شك بقراءتنا السننية لتاريخ الأندلس نصل إلى نتيجة هامة ونافعة للأمة في حاضرها ومستقبلها، نتيجة كيف تقام الأمجاد وكيف تسقط، نتيجة كيف تبنى الحضارات وكيف تهدم، نتيجة كيف تشرق شمس أمة وكيف تغيب، وكيف يبزغ فجرها وكيف يأفل**

**1- حب الدنيا وكراهية الموت:**

أورد ابن خلكان في وفيات الأعيان والمقري التلمساني في نفح الطيب أنه لما اقترب جيش لُذريق من الجيش الإسلامي، قام طارق بن زياد في أصحابه، فحمد اللّه وأثنى عليه بما هو أهله، ثم حثَّ المسلمين على الجهاد ورغَّبهم فيه، ثم قال: «أيها الناس: أين المفرّ؟! البحر من ورائكم والعدوّ أمامكم، فليس لكم واللّه! إلاّ الصدق والصبر، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضْيَعُ من الأيتام في مأدب اللئام، وقد استقبلتُم عدوّكم بجيشه وأسلحته، وأقواتُه موفورة، وأنتم لا وَزَرَ[2] لكم غير سيوفكم، ولا أقوات لكم إلاّ ما تستخلصونه من أيدي أعدائكم، وإن امتدّت بكم الأيام على افتقاركم، ولم تُنجزوا لكم أمرًا، ذهبت ريحكم، وتعوّضت القلوبُ من رعبها منكم الجراءةُ عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية، فقد ألقته إليكم مدينَتُه المحصّنة، وإنّ انتهاز الفرصة فيه لممكن لكم إن سمحتم بأنفسكم للموت، وإني لم أحَذِّركم أمرًا أنا عنه بنَجْوَة[3]، ولا حملتُكم على خُطّة أرخصُ متاعٍ فيها النفوسُ إلاّ وأنا أبدأ بنفسي...»اهـ

فحقق طارق -رحمه اللّه- وجنده نصرا مؤزرا في وادي بَرْبَاط، حيث انتصر المسلمون وهم اثني عشر ألفًا (12000) على مائة ألف (100000) من أعدائهم الفرنجة، ثم أخذ طارق بن زياد جيشه بعد انتهاء المعركة مباشرة واتّجه شمالاً؛ لفتح بقيّة بلاد الأندلس، ففتحها بإذن اللّه وعونه ونصره لما كان معتزا بدين اللّه لا باليهود والنصارى، وكان همه نصرة الإسلام لا العصبية وشهوة السلطة وحب الدنيا، وكان جيشه وجنوده صفا واحد لا متفرقين شذر مذر...

لكن هذا النصر الذي حققه طارق وبعده يوسف بن تاشفين وغيرهم -رحمهم اللّه- لم يحافظ عليه الذين ملكت شهوة الحكم عليهم كيانهم، وصارت أغلى أمانيهم ولو قدموا شعوبهم وأرضهم فداء لها...

كان الاستغراق في الترف والتبذير والركون إلى الدنيا وملذاتها وشهواتها ومغرياتها، والخنوع والدعة والميوعة، والفسق والفجور وحب الدنيا وشهوة السلطة... هي أولى العوامل التي أدّت إلى تلك النهاية المؤلمة للأندلس -بلاد

العلم والفقه والحضارة-، ولآخر معاقلها "غرناطة". وقد ارتبطت كثيرًا فترات الهبوط والسقوط بكثرة الأموال والانغماس في الملذات، والميوعة الشديدة في شباب الأمة، والاخطاط الكبير في الأهداف؛ قال اللّه عز وجل: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (11) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ (12) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: 11- 13].

لقد أصاب أمتنا في الأندلس من العقاب الإلهي ما جعلها فردوسا مفقودا، ولم تنتبه لتحذير نبيها ﷺ لها من العقاب الذي سيصيبها عندما تتنكب سنن اللّه، وتحيد عن منهاجها المستقيم، بحبها الدنيا - مناط البلاء- وكراهيتها للموت؛ فعَنْ سيدنا ثَوْبَانُ ﷺ قَالَ : قَالَ سيدنا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«**يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا فَقَالَ قَائِلٌ وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ قَالَ بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ الْوَهْنَ فَقَالَ قَائِلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْوَهْنُ قَالَ حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ**»[4]. مَثَلٌ لاَ أبلغُ منه في تصوير تفكك الأمة، وانفرام عقدها، وخفة وزنها، وَهَوَان قيمتها، وانسياحها في مجاري التبعية الفكرية والسياسية، وتكالب أعدائها عليها من جراء ما كسبت أيديها.

سيْل يجرف غثاءً. مثال من أوتي جوامع الكلم كاشفٌ عن مكامن الداء في نفوسنا التي أصبحت تبْنا مجروفا.

**كانت سنن اخدار وسقوط وضياع الأمم قد تشابهت إلى حدٍّ كبير في كل فترات الضعف في تاريخ الأندلس، وهذه السنن نفسها قد زادت وبشدّة في فترة سقوط غرناطة؛ ولذلك كان السقوط كاملاً وحاسمًا**

ابتليت الأمة المسلمة في الأندلس بالوهن، وكان سببا في سقوط حضارة واندثار تاريخ أزيد من ثمانية قرون، وتحولت تلك الحضارة إلى لعبة في يد الفرجة يعبثون بها ويمحون آثارها...

إن الغثائية مرض الطفوح والتفرق والتشرذم وخفة الوزن. وهي صفات ما يضيع ويذهب غيرَ معتَد به وهو ذلك الزبد الذي تحمله الوديان، لا قيمة له ولا أثر.وكُنْهُ الغثائية الظاهرة وسببها الوهْنُ الذي لا يفيد معه كثرة العدد.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مَسْعُود ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«**مَنْ أَشْرَبَ قَلْبَهُ حُبَّ الدُّنْيَا الْتَاطَ[5] مِنْهَا بِثَلَاثٍ: شَقَاءٍ لَا يَنْفَدُ عَنَاهُ، وَحِرْصٍ لَا يَبْلُغُ غِنَاهُ، وَأَمَلٍ لَا يَبْلُغُ مُنْتَهَاهُ، فَالدُّنْيَا طَالِبَةٌ وَمَطْلُوبَةٌ، فَمَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا طَلَبَتْهُ الْآخِرَةُ حَتَّى يَأْتِيَهُ الْمَوْتُ فَيَأْخُذَهُ، وَمَنْ طَلَبَ الْآخِرَةَ طَلَبَتْهُ الدُّنْيَا حَتَّى يَسْتَوْفِيَ مِنْهَا رِزْقَهُ**»[6].

فحب الدنيا أصل كل مصيبة ومذلة، فالراكض وراء سراب الدنيا، والمنهزم باللذات المشتغل بإرضاء شهواته لا يمكن أن يصون نفسه فبالأحرى أرضه وأمته!

إن النفس تحب الدنيا وتكره الموت. وحبُّ الدنيا والحرص عليها، على لذاتها المادية ورئاستها، سدٌّ حاجز للإيمان أن يدخل القلب، وسبب الغثائية، وداع أبديٌّ للفُرقة والتفتُّت والخلاف العِدائيِّ.

ولهذا فإن اللّه تعالى جمع لنا في سياق آية من سورة آل عمران أربعة أمراض وأدواء مترابطة بعضها يغذي بعضا؛ ما يكون سببا للهزيمة والوبال.قال اللّه تعالى: ﴿**وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ**

مَا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة آل عمران: 152].

هذه الأمراض كما هي مذكورة في الآية هي:

أولا: الفشل (فشل الأمير أبو عبد الملك الصغير ثم فشل بفشله جنده ومن معه).

ثانيا: التنازع في الأمر (تنازع ملوك الطوائف على السلطة والإمارة فقسموا الأندلس قطعا).

ثالثا: العصيان (عصيان أوامر الله تعالى وأوامر رسوله الذي أمر بالوحدة والاعتصام بحبل الله والجهاد لحماية ثغور الأمة والمستضعفين، والشورى ... لكنهم عصوا وعصوا العلماء الربانيين أمثال الإمام الباجي وغيره –رحمهم الله– الذين نصحوهم بالوحدة والائتلاف ورد عدوان المعتدين...).

رابعا: حب الدنيا: أصل البلاء ومناطه، وسبب كل خطيئة. (لقد كان هم أمراء الأندلس الحفاظ على كراسيهم وسلطتهم ولو قدموا أعناق شعبهم وأراضيهم ثمنا لذلك).

فلما توفرت هذه الأمراض في الأندلس، كانت الهزيمة والنكبة والسقوط، وفقدنا خير البلاد المسلمة في العالم.

لما زاغ حكام المسلمين في الأندلس عن المنهاج النبوي والمحجة اللاحبة، حلت بدارهم الويلات، ودخل عليهم العدو من كل باب: فأخذ ما في أيديهم فخابوا وخسروا.

> **كان الاستغراق في الترف والتبذير والركون إلى الدنيا وملذاتها وشهواتها ومغرياتها، والخنوع والدعة والميوعة، والفسق والفجور وحب الدنيا وشهوة السلطة... هي أولى العوامل التي أدت إلى تلك النهاية المؤلة للأندلس –بلاد العلم والفقه والحضارة– ولآخر معاقلها "غرناطة"**

**2–الذنوب والمعاصي:**

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «**يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ! خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ: لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ، حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا، إِلاَّ فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلاَفِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا. وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ، إِلاَّ أُخِذُوا بِالسِّنِينَ[7] وَشِدَّةِ الْمَؤُونَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ. وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ، إِلاَّ مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ، وَلَوْلاَ الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا. وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ، إِلاَّ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ، فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ. وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ، وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ، إِلاَّ جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ**»[8].

لقد نقض أمراء الأندلس عهد الله وعهد رسوله وخانوا أمتهم وتفرقوا وتشتتوا وتمزقوا وتنازعوا على السلطة والحكم، وتقاعسوا عن الدفاع عن حمى الإسلام وأهلها، ولازموا الذنوب والمعاصي والمهلكات فحق عليهم القول رغم كثرة عددهم؛ إذ جيش المسلمين لا يُنصَر بالقوة ولا بالعدد والسلاح، لكنه يُنصر بالتقوى.

فإذا بعُد المسلمون عن دين ربهم، وإذا حادوا عن منهاج نبيهم كُتب عليهم الهلكة والذلة والصغار. يقول رسول الله ﷺ: «**إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ؛ فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكْنَهُ**»[9].

وإذا كان هذا حال محقرات الذنوب، تلك التي يستحقرها العبد من فرط هوانها، فلا

تزال تجتمع عليه حتى تهلكه. فما البال وما الخطب بكبائر الذنوب من الخلاعة والمجون وترك الصلاة، والتعامل بالربا، وشرب الخمور، والسب واللعن، وأكل المال الحرام، وظلم العباد، والقتل بغير حق، وخيانة الأمة، وموالاة الأعداء... فأي نصر يُرجى ويُتوقَّع بعد هذا؟!

**3-توحد الأعداء وتمزق المسلمين صفا وقلوبا:**

إن الخلاف والتنازع لا يعطي ثمارا ولا يحقق نصرا ولا يرهب عدوا، فهو مرض خطير عاقبته سيئة ونتائجه وخيمة. ولهذا حذرنا الله تبارك وتعالى من هذا الجرثوم الخبيث، وقدم الأمر بطاعة الله ورسوله على النهي عنه، مما يجعلنا نلمح أن العاصم من هذا المرض الخطير هو الطاعة لله ﷻ ولرسوله الكريم ﷺ. هذه الطاعة التي تستلزم طاعة أمير رسول الله أو خليفته فيما يأمر به من معروف أي في غير معصية الله تعالى، وطاعته في هذه الحالة في حقيقتها وجوهرها طاعة لله ولرسوله. قال جل ذكره: ﴿**وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ [سورة الأنفال:46].

فلا أضر على المؤمنين المجاهدين من التنازع والفرقة، ومن ثم فإن "الموافقة بين المسلمين أصل الدين، وأول الفساد ورأس الزلل الاختلاف. وكما تجب الموافقة في الدين والعقيدة تجب الموافقة في الرأي والعزيمة"[10].

ولهذا فطن الأعداء إلى أهمية الوحدة، فأخذوا يتوحدون "خشية الاستضعاف ويتكتلون رجاء الانتصاف ويواجهون أعداءهم الأقوياء بمثل قوتهم وبما هو أكثر منها، ولكن المسلمين لا يزالون في غمرتهم ساهين، يتفرقون ولا يتوحدون، والأصل فيهم التوحد، ويتمزقون ولا يتكتلون، والأصل فيهم التكتل. كل وحدة من وحداتهم تئول إلى وحدات، وكل دولة إلى دويلات -كما كان حال الأندلس-، وكل جماعة إلى جماعات، وكل حزب إلى أحزاب، حتى ضيعوا قوتهم وأهلكوا أنفسهم، ومكنوا لأعدائهم بأيديهم"[11].

ولله در القائل:

كونوا جميعا يا بني إذا اعترى
خطب ولا تتفرقوا أفرادا
تأبى الرياح إذا اجتمعت تكسرا
وإذا تفرقن تكسرت آحادا

**سيل يجرف غثاءً. مثال من أوتي جوامع الكلم كاشفٌ عن مكامن الداء في نفوسنا التي أصبحت نهبًا مجروحا**

فقوة المسلمين في وحدتهم واتحادهم، وتخاذلهم في تخالفهم وانشقاقهم. يقول الله تعالى مذكرا إيانا بنعمة الأخوة والوحدة والألفة: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾ [سورة آل عمران:103]. التمسك بحبل الله المتين الممدود من سماء الوحي إلى أرض الواقع عصمة من التقطع، والسقوط في مهاوي التفرق والتشرذم، ومنعة عن التَّسَيُّب في "أصالة" قومية قبلية أو "معارضة" إيديولوجية يلتمس عندهما المتقطعون جامعا يلُمُّ شَعَثَهم الذي تفرق شذر مذر.

ففي "اجتماع المسلمين على دينهم، وائتلاف قلوبهم يصلح دينهم وتصلح دنياهم وبالاجتماع يتمكنون من كل أمر من الأمور، ويحصل لهم من المصالح التي تتوقف على الائتلاف ما لا يمكن عدها، من التعاون على البر والتقوى، كما أن بالافتراق والتعادي يختل نظامهم وتنقطع روابطهم ويصير كل واحد

يعمل ويسعى في شهوة نفسه، ولو أدى إلى الضرر العام"[12].

ويأتي في غضون حديثنا عن التمزق القاتل والخلاف المذموم، أننا كلما أطلنا النظر في صفحات تاريخنا -قبل الأندلس وبعدها- "رأينا أن العنصر القوي في هذه الأمة، وخيرها، وانتصارها هو القلوب المجتمعة والأرواح المؤتلفة، والنفوس الصافية، وكلما نظرنا إلى تخلخل بناء الأمة -كما تخلخلت الأندلس- رأينا أن المعول الأول الذي يعمل في هدم بنائها هو الفرقة والاختلاف والتعصب المذهبي، بدون تبصر، ومن غير رؤية، فإذا عاد إلى المسلمين رشدهم، وحرك الإيمان موات قلوبهم فألف بينهم عاد إلينا بناء الإسلام شامخا، فالحب والوحدة أساس القوة والعظمة... والخلاف والفرقة أساس الذل والهوان"[13].

وكلما توحدت أمة الإسلام انتصرت، وكلما تفرقت وتشتتت انهزمت وذلت، هذه هي سنة الله المطردة التي لا تحابي أحدا مع الأمة المحمدية التي أراد لها أن تبقى دائما وأبدا متحدة ومتماسكة كالجسد الواحد، لأنها الأمة الوحيدة التي تحمل نور الله في أرضه إلى يوم القيامة.

لكن أمراء الأندلس لما أفلت حبل الفطرة من يدهم، وارتخت أيديهم عن عروة القرآن تمزقوا شيعا وتقطعوا زُبرا وتعمق الخلاف بينهم؛ وعاشت الأندلس بعد نهاية الدولة العامرية في تمزق وتشتت، وتحولت إلى ممالك وإمارات وصلت إلى 22 إمارة، كل واحدة مستقلة عن الأخرى، وأصبحت فيما يسمى ب"ملوك الطوائف"، واتسع شرخ الخلاف والفرقة بينهم، بل استعان بعضهم بالأعداء في الصراع مع إخوانه، وقدم تنازلات من حصون ومدن لعدوه شريطة التغلب على إخوانه، فباع أرضه وخان أمته ووطنه؛ فأضاعوا بلادهم، وأهلكوا أمتهم وكانوا السبب فيما حل بها من الفتك والقتل والاستعباد والطرد والقتل بأبشع الوسائل الهمجية والوحشية..

**4-التقاعس والتقاعد عن فريضة الجهاد في سبيل الله لحماية الثغور وحماية الناس:**

إن الجهاد سنة ماضية إلى يوم القيامة، وقد شرعه الله ليعيش المسلمون في عزّة ويموتون في عزّة، ثم يدخلون بعد ذلك الجنة ويُخلّدون فيها.

وإن الناظر إلى تاريخ الأندلس قبيل سقوطها ليتساءل: أين أولئك الذين نذروا أنفسهم لله وللدفاع عن حمى دين الله ونصرة المستضعفين؟ أين المجاهد الرباني والقائد الحكيم يوسف بن تاشفين، وأين أبو بكر بن عمر اللمتوني؟ وأين طارق بن زياد وغيرهم؟

**الموافقة بين المسلمين أصل الدين، وأول الفساد ورأس الزلل الاختلاف، وكما تجب الموافقة في الدين والعقيدة تجب الموافقة في الرأي والعزيمة**

وإنها لعبرة وعظة حين ننظر إلى أمراء غرناطة، ومَنْ كان على شاكلتهم حين ذُلّوا وأُهينو لُمّا تركوا الجهاد في سبيل الله: يقول تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ** (38) **إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [التوبة: 38- 39].

ولهذا أدرك سيدنا رسول الله ﷺ مغزى سنة الله في الجهاد وكنهها وأنها ماضية لا تتخلف، فحذر أمته من التخلف عنها وتنكبها: : عَنِ ابْنِ عُمَرَ -رضي الله عنهما- قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَقُولُ: «إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ

بالزَّرْعِ. **وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ**»[14].

ألم تحصد هذه السنة الإلهية ملوك الطوائف في الأندلس، لما تنكبوها وحادوا عن منهاجها، ذلوا وخسئوا وسحب من تحتهم البساط وطردوا من قصورهم أذلة صاغرين.

**5- سنة الاعتزاز بغير اللّه وموالاة اليهود والنصارى:**

يقول اللّه سبحانه وتعالى في سنة الاعتزاز بغيره:﴿**وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا**﴾[ سورة مريم: 81-82]. سنة إلهية ثابتة: من اعتز بغير اللّه خذله اللّه. وجعل عاقبة أمره خسرا. لما اعتز ملوك الأندلس وأصحاب القوة والجاه فيها باليهود والنصارى تخلف عنهم التوفيق، وأصبحوا في أمر مريج. حتى أسقطوا بموالاتهم لأعداء اللّه حضارة ثمانية قرون... إنه خِذْلَانٌ من اللّه استحق عقابَه شرذمة أرادت العزة في غير الإسلام، فأذلها اللّه.

ورغم التحذيرات القرآنية من موالاة أعداء اللّه: ﴿**وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ**﴾ [البقرة: 120]. ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ [المائدة: 51]. وآيات غيرها كثير. لكنهم عموا وصموا عن هذه التحذيرات القرآنية حتى وقعوا في شر أعمالهم، فضيعوا أمتهم وأرضهم ومجدهم وعزهم وكرامتهم وحريتهم وإنسانيتهم...

**6- توسيد الأمر لغير أهله:**

كان إسناد الأمر إلى غير أهله أحد عوامل سقوط الأندلس؛ وكان ذلك واضحًا جدًّا خاصة في ولاية هشام بن الحكم، وولاية الناصر بعد أبيه يعقوب المنصور الموحدي، وأيضًا ولاية جميع أبناء الأحمر حتى آخر ملك منهم وأبو عبد الملك الصغير.

وللّه در الشاعر القائل:

مما يزهدني في أرض أندلس
ألقاب معتمد فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها
كالهر يحكي انتفاخا صولة الأسد

أسند الأمر إلى الدعة والفسق والفجور والفساد وحب السلطة وموالاة الأعداء على حساب إخوانهم من المسلمين... فكانت النتيجة واضحة جدا خسرنا الأندلس بكل ما فيها...

**7- الجهل بالدين والتربية على غير مبادئه:**

إن الفقه في الدين والتربية الإيمانية يقيان صاحبهما من المهالك والمخاسر والفتن؛ ولقد كان للتفقه في الدين والتربية الإيمانية في الأربطة والمجالس قيمة عظمى زمن عبد اللّه بن ياسين، حيث ربى أعظم أمير ومجاهد رباني- يوسف بن تاشفين- خاض معارك خالدة في الأندلس وأعاد للمسلمين عزتهم ومكانتهم وكرامتهم... كما كان للعلم قيمة كبرى زمن الحُكم بن عبد الرحمن الناصر.

لكن للأسف انتشر الجهل بالدين بين الناس في نهاية عهد المرابطين، وفي عهد دولة الموحدين، وسادت بين الناس معتقدات غريبة وآراء عجيبة، تدل على الجهل المطبق بالدين وأحكامه ومبادئه وتعاليمه... وخير مثل على هذا الجهل ما كان من غزو محمد بن الأحمر الأول لإشبيلية، وقد تبعه الناس في ذلك؛ ظنًا منهم أنهم على صواب، وأنهم أصحاب رسالة وفضيلة، وأيّ جهل بالدين أكثر من هذا؟!

**8-الاغترار بالكثرة الغثائية:**

قال جل وعلا:﴿**لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ**﴾[ سورة التوبة:25].

قال الشهيد سيد قطب -رحمه الله-:"إن الكثرة العددية ليست بشيء، إنما هي القلة العارفة المتصلة الثابتة المتجردة للعقيدة. وإن الكثرة لتكون أحياناً سبباً في الهزيمة، لأن بعض الداخلين فيها، التائهين في غمارها، ممن لم يدركوا حقيقة العقيدة التي ينساقون في تيارها تتزلزل أقدامهم وترتجف في ساعة الشدة؛ فيشيعون الاضطراب والهزيمة في الصفوف . فوق ما تخدع الكثرة أصحابها فتجعلهم يتهاونون في توثيق صلتهم بالله، انشغالاً بهذه الكثرة الظاهرة عن اليقظة لسر النصر في الحياة.

لقد قامت كل عقيدة بالصفوة المختارة، لا بالزبد الذي يذهب جفاء، ولا بالهشيم الذي تذروه الرياح!"[15].

إن الإعجاب بالكثرة، هزيمة روحية، سبقت الهزيمة في ميدان المعركة. وهكذا فإن الاتكال على الأسباب الظاهرة مرض؛ دواؤه التوكل على الله عز وجل، والاعتماد عليه، مع إعطاء الأسباب حقها، بإعداد ما استطعنا من قوة. وإنما الأسباب الظاهرة من وضع الله تعالى، فادعاء تخطيها رفض للعبودية المضروبة علينا وعلى كل البشر على سواء في هذا الميدان. فمن جَدّ وَجَدَ، ومن لُجَّ وَلُجَ، ومن سار على الدرب وصل.

**9- تغيير النعم:**

قال الحق جل وعلا: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾[سورة الرعد: من الآية11]. وقال الله عز اسمه: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ [سورة الأنفال:53]. لما توحد المسلمون وحكامهم في الأندلس في معاركهم وفي بناء مجتمعهم والتزموا بما أمرهم الله به، وجاهدوا في سبيل الله نصرة لدين الله ونصرة للمسلمين وديارهم صدقهم الله وعده ونصرهم في معارك شتى، واستمرت حضارتهم لقرون متوالية...

ولما خالفوا أمر الله واستكانوا للدعة والمرح والاسترسال في الشهوات وحياة اللهو والعبث، والخلاعة والمجون، وغيروا نعم الله عليهم تفرقوا شذر مذر.

**ويأتي في غضون حديثنا عن التمزق القاتل والخلاف المذموم، أننا كلما أطلنا النظر في صفحات تاريخنا - قبل الأندلس وبعدها- "رأينا أن العنصر القوي في هذه الأمة، وخيرها، وانتصارها هو القلوب المجتمعة والأرواح المؤتلفة، والنفوس الصافية، وكلما نظرنا إلى تخلخل بناء الأمة -كما تخلخلت الأندلس- رأينا أن المعول الأول الذي يعمل في هدم بنائها هو الفرقة والاختلاف والتعصب المذهبي، بدون تبصر، ومن غير رؤية**

ولذلك لما تغير أحول الناس في الأندلس وأمرائها تغير حال الأندلس وسقطت من أيديهم، ولذلك يرى المؤرخون: "أن الأَنْدَلُسيين ألقوا بأنفسهم في أحضان النعيم، ناموا في ظل ظليل من الغنى الواسع والحياة العابثة والمجون، وما يرضي الأهواء من ألوان الترف الفاجر، فذهبت أخلاقهم كما ماتت فيهم حمية آبائهم البواسل، وغدا التهتك والخلاعة والإغراق في المجون، واهتمام النساء بمظاهر التبرج والزينة بالذهب واللآلي مِن أبرز المميزات أيام الاضمحلال التي استناموا للشهوات والسهرات الماجنة، والجواري الشاديات، وإن شعبًا يهوى إلى هذا الدرك من الاخلال والميوعة لا يستطيع أن يصمُد رجاله لحرب أو جهاد"[16].

بسبب كل هذا كانت الهزيمة وكان السقوط المريع، إنها سنة لا تتخلف في سائر

الأزمان. لأن حكاما وجنودا هذا حالهم لا يثبتون في ساحة الوغى.

إذن فحدوث التغيير في أمة ما وفي مجتمع ما مترتب على حدوث التغيير من الأمة والمجتمع سلبًا وإيجابًا، والجزاء من جنس العمل.

لقد دخل المُسْلِمُون الأندلس وأعلوا راية الإسلام فيها لما كان نشيد المجاهد القائد البطل طارق بن زياد –رحمه اللّه– في العبور "اللّه أكبر". وبقوا فيها زمنًا حين كان يحكمها أمثال عبد الرحمن الداخل –رحمه اللّه– عندما أهديت له جارية جميلة فنظر إليها وقال: إن هذه لمن القلب والعين بمكان، وإن أنا لهوت عنها بمهمتي فيما أطلبه ظلمتها، وإن لهوت بها عما أطلبه ظلمت مهمتي، فلا حاجة لي بها الآن.

وعندما قُدم إليه الخمر ليشرب فقال: "إنّي محتاج لما يزيد في عقلي لا ما ينقصه"[17].

يقول الدكتور عبد الرحمن الحجي عن الفاتحين الأوائل للأندلس أمثال طارق وصقر قريش وابن تاشفين: "كانت غيرة هؤلاء المجاهدين شديدة على إسلامهم، فُدَوْه بالنفس وهي عندهم له رخيصة، فهو أغلى من حياتهم، أشربت نفوسهم حُبّه، غدا تصورهم وفكرهم ونورهم وربيع حياتهم"[18].

وضاعت حضارة الأندلس من أيدي المُسْلِمِين عندما كان نشيدهم:

دوزن العود وهـــات القــدحا

راقت الخمـرة والورد صحا

وعندما قصد الإفرنج بلنسية لغزوها عام 456هـ خرج أهلها للقائهم بثياب الزينة، فكانت وقعة بطرنة التي قال فيها الشاعر أبو إسحاق بن معلي:

لبسوا الحديد إلى الوغى ولبستم
حُلَلُ الحرير عليكـــم ألـوانًا
ما كان أقبحهم وأحسنكم بها
لو لم يكن ببطرنة ما كانا

ضعفت همم المسلمين، وتنافسوا الدنيا ومغيراتها فسلبت ديارهم، وانتهكت أعراضهم، وانظروا إلى حال الدنيا وتلاعبها بأصحابها، لما تنافسها الأمراء والملوك من أجل إسعاد جواريهم وزوجاتهم. ما فعلت الدنيا بالمُعْتَمِد بن عباد لما اشتهت إحدى زوجاته أن تمشي في الطين وتحمل القِرَب، فأمر ابن عَبّاد أن ينشر المسك على الكافور والزعفران، وتحمل قربًا من طيب المسك وتخوض فيها تحقيقًا لشهواتها!

ولكن دوام الحال من المحال، والعزة للّه ولرسوله وللمؤمنين، انقلبت الموازين وفق سنة اللّه الخالدة، فسيق ابن عباد أسيرًا إلى أغمات وحبس هناك وزال عنه نعيم الدنيا وعن أهله، وتحولت بناته من سيدات إلى غزلهن للناس ليضمن قوت يومهن، وفي ذلك يقول ابن عباد:

فيما مضى كنت بالأعياد مسـرورًا
فساءك العيد في أغمات مأسورًا
ترى بناتك في الأطمار جائعـــة
يغزلن للناس ما يملكن قطميرًا
برزن نحوك للتسليم خاشعـــة
أبصارهن حسيرات مكاسيرا
يطأن في الطين والأقدام حافية
كأنّها لم تطأ مسكًا وكافورًا
مَن بات بعدك في مُلك يُسَرّ به
فإنما بات بالأحلام مغرورا[19]

**10–تداول الأيام بين الناس:**

لقد جعل اللّه ﷻ تعالى مداولة الأيام بين الناس سنة من سننه الكونية، فقال جل ذكره:﴿**وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا**﴾[سورة آل عمران: من

الآية140]. ليميز سبحانه صادق الإيمان من المدعي، وينكشف النفاق المدسوس المتقاعد.

ولذلك فإن هذه المداولة أو التداول يقع ضمن سنن اللّه في عباده، فمن شمر على ساعد الجد وأخذ بأسباب النصر ومقوماته دالت له الأيام، ومن نكص عنها -كما نكص أهل الأندلس- دالت عليه الأيام، وربنا تبارك وتعالى لا يظلم أحدا. فالدولة "تكون لأفضل الفريقين استعدادا وصبرا، وإن لم يكن على حق. فهذه قوانين من أخذ بها انتصر ولو كان على الباطل. العاقبة للمتقين ما استمسكوا بحقهم وعملوا له، وإن طال الطريق"[20].

**11-الفشل والهزيمة المعنوية:**

الفشل والهزيمة المعنوية مرض خطير، وعرض من أعراض الفرقة والخلاف وحب الدنيا، وطريق للهزيمة المادية والعسكرية... ولذلك لما أعلن الملك الصغير أمام جنده وحاشيته ووزراءه أنه يفكر في الاستسلام زاداهم فشلا على فشل وهزيمة على هزيمة، ووافقوه على الاستسلام -إلا وزيره موسى أبى الاستسلام- للعدو الفرنجي وتقديم مفاتيح آخر قلعة من قلاع الأندلس على طبق من ذهب للعدو الغاصب.

**12- الغفلة عن اللّه تعالى:**

يقول اللّه تبارك وتعالى يحذرنا من مغبة الغفلة عنه جل وعلا:﴿**وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ [سورة الحشر:19].

ولذلك فإن المؤمن المجاهد عندما يذكر اللّه تعالى ولا يغفل عنه يأتيه النصر من كل مكان، ويمده اللّه بمدده. وعندما ينسى ربه، يوكله إلى نفسه، ويجعل تدميره في تدبيره. يقول اللّه تعالى يصف المنافقين: ﴿**الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾[ سورة التوبة:67].

فضد الغفلة اليقظة، أي أن نستحضر اللّه تعالى وقدرته وحفظه، ومعيته، وما أعده للمتوكلين عليه الراجين رحمته وعونه ونصره، الذاكرين له في السراء والضراء، والمنشط والمكره.

ولا أدل من غفلة أهل الأندلس عن اللّه والدار الآخرة في انشغالهم بعمارة القصور والتفنن في زخرفتها وبنائها والتنافس فيها، وأشعار الغزل والرقص والترف والتبذير والمجون... نسوا اللّه فأنساهم وتركهم لما انشغلت به أنفسهم عنه حتى كان تدميرهم تدبيرهم...

**13-حب الرئاسة:**

إنه ليس هناك ضرر على قلب المرء ودينه من حبه الرئاسة والجاه، ولنا في تاريخ الأندلس دليل على ما ينتج عن هذا المرض من نتائج وخيمة وعواقب سيئة. لما دبت روح حب الرئاسة في قلوب أمراء المسلمين بالأندلس وتركوا أمر دينهم وراء ظهورهم، انقسموا إلى طوائف وتفرَّقوا شذَرَ مذَرَ في بلاد الأندلس، ففتك بهم عدوهم بما تشق له المرائر، وتفتت الأكبدة، وتقشعر من هوله الجلود والأبدان.

هذا ومن المعلوم، أن خطورة هذا المرض قد تصل إلى سفك الدماء، وانتهاك الحرمات، واتهام الأبرياء، وهذا ما وقع في تاريخ المسلمين عامة وفي تاريخ الأندلس خاصة، فكم من أخ قتل أخاه أو أباه أو عمه أو خاله وكم من أخ تحالف مع عدوه ضد أخيه أو أحد أقاربه...من أجل حطام الدنيا الفانية، وحرصا على مغرياتها الزائلة، وصفحات كتب التاريخ مليئة بذلك وشاهدة على خطورة هذا الداء العضال.

إلام الخُلف بينكم إلامـــا
وهذه الضجة الكبرى علاما

وفيم يكيد بعضكم لبعض
وتبدون العداوة والخصاما

**14- التخاذل والنفاق والخيانة:**

إن وجود المتخاذلين والمنافقين والخائنين في صف المجاهدين لا مناص منه، وكتاب ربنا وسنة نبينا عليه الصلاة والسلام مليئان بتحذيرنا من هذه العناصر المريضة، وواجب الأمة أن تأخذ حذرها منهم وإذا ظهر منهم ما يسوؤها وجب أن تطهر صفوفنا منهم حتى لا يكونوا منفذا للهزيمة والوبال.

وفي فترات ضعف الأندلس إلى سقوطها كان من أسباب ذلك كثرة الخيانات والتخاذل.

فهذا الإمام أبو الوليد الباجي -رحمه اللّه- يدعو ملوك الطوائف إلى الوحدة لمواجهة الخطر النصراني الذي يهدد وجود المسلمين في الأندلس، لكنهم رغم ترحيبهم به وبدعوته، تخاذلوا عن الدفاع عن حمى المسلمين؛ لأن حب الدنيا الذي تربع على عرش قلوبهم أصماهم وأعمى أبصارهم، وزادت النزاعات بينهم حتى وصلت إلى القتال، مما دفع بأعدائهم للتجرؤ عليهم واستباحة أراضيهم وأعراضهم، فهاجم "فردلند" مدينة بازو فقتل أهلها وانتهك أعراضها وأخذ الباقي أسرى في سنة 449هـ

بل وصلت الخيانة ببعضهم أن رأى إخوانه والعدو يحاصرهم لكنه لا يحرك ساكنا ويرفض نصرتهم ومساعدتهم، كما وقع لما راسل المظفر باللّه أخاه المؤيد باللّه . بل أرسل إلى كل دويلات الأندلس يطلب المدد وفك الحصار عن المسلمين لكن للأسف لم يجبه أحد، بل دل أحد الخائنين العدو الفرنسي على مصدر الماء الذي يروي عطش المسلمين فقطعوه عنهم فاشتد العطش بهم، فاقتحم الفرنسيون الكاثوليك والنورمان النصارى مدينة "بربشتر" فاستباحوها وقتلوا بين 40000 ألفا إلى 100000 من أهلها، وهتكوا الأعراض أمام محارمها وأهلها، وأصبح كل أهل المدينة عبيدا للمحتل بعدها.

صرخات وصيحات نساء المسلمين، لكن من يلبي النداء؟؟؟ أقزام تتقلب في إيوانها، ونساء المسلمين يهتك أعراضهن.

ثم جاء دور ما تبقى من حصون الأندلس، جاء دور غرناطة . وجمع فرديناند جموعه للتوجه نحو غرناطة، فظهرت خيانة جديدة من "أبي عبد اللّه محمد الثالث عشر المعروف ب"الزغل" لابن أخيه الملك أبي عبد اللّه الصغير طمعا في الملك، فكان سببا في إضعاف المملكة وجعلها فريسة لمملكتي قشتالة وأرجون. لكن جرت الرياح بما لم تشتهيه السفن، فأهل غرناطة له كارهون وباسم ابن أخيه يهتفون، فما كان منه إلا أن أخذ أمواله وحشمه وخدمه متوجها إلى المغرب ليعيش عيشة هنية بما أخذه معه من مال وجوار وخدم لكن حاكم فاس سرعان ما ألقى القبض عليه وجرده من كل ما يملك، فسملت عيناه وألقي به في السجن ثم أطلق سراحه بعد ذلك، فعاش متسولا منبوذا حتى مات.

واشتد الحصار على غرناطة واستسلم الملك الصغير ومن معه من قادة الجيش وعلماء السوء إلا وزيره موسى الشهم.

فكان استشهاد موسى بن أبي غسان وتسليم الملك الصغير أبو عبد اللّه غرناطة للملكين "فرناندو الخامس" و"إيزابيلا" إيذانًا بانتهاء عصر حكم المسلمين في غرناطة - أجمل مدينة في العالم- وبسقوطها ينتهي حكم المسلمين بالأندلس.

أعطى أبو عبد اللّه محمد الثاني عشر أو محمد الصغير الموافقة بالتسليم، ولم ينسَ أن يرسل إليهما بعضًا من الهدايا الخاصة، وبعد التسليم بأيام يدخل الملكان في خيلاء قصر الحمراء الكبير ومعهما الرهبان، وفي أول عمل

رسمي يقومون بتعليق صليب فضي كبير فوق برج القصر الأعلى. ويُعلن من فوق هذا البرج أن غرناطة أصبحت تابعة للملكين الكاثوليكيين، وأن حكم المسلمين قد انتهى من بلاد الأندلس.

خرج آخر ملوك المسلمين أبو عبد اللّه محمد بن الأحمر الصغير الخائن من القصر الملكي في نكسة كبيرة وفي ذل وصغار، ويسير بعيدًا في اتجاه بلدة "أندرش". حتى وصل إلى ربوة عالية تُطل على قصر الحمراء يتطلع منها إليه، وإلى ذاك المجد الذي قد ولّى، وبحزن وأسى قد تبدّى عليه لم يستطع فيه الصغير أن يتمالك نفسه، انطلق يبكي حتى بللت دموعه لحيته، حتى قالت له أمه «عائشة الحرة»: أجل: فلتبك كالنساء مُلْكًا لم تستطع أن تدافع عنه كالرجال.

وإلى هذه اللحظة ما زال هذا التل -الذي وقف عليه الملك الصغير- في إسبانيا، وما زال الناس يذهبون إليه، يتأمّلون موضع هذا المُلك الذي أضاع مُلكًا أسسه الأجداد، ويُعرف (هذا التل) بـ زفرة العربي الأخيرة، وهو بكاء أبي عبد اللّه محمد الصغير حين ترك ملكه.

وقد أحسن من قال:

ومن أخذ البلاد بغير جهد
يهون عليه تسليم البلاد

فكان سقوط الأندلس في الثاني من شهر ربيع الأول سنة 897هـ= 2 من يناير سنة 1492م.

وهاجر بعدها أبو عبد اللّه محمد الصغير إلى بلاد المغرب الأقصى، واستقر بفاس، وبنى بها قصورًا على طراز الأندلس، وكانت ذريته بعده يعدون من جملة الشحاذين، إنها عاقبة الذل والخيانة[21].

وفي سنة 905هـ/1499م أمر ملك إسبانيا فرديناند بإغلاق المساجد وحظر إقامة شعائر المسلمين وبدأت الكنيسة الكاثوليكية بتنصير المسلمين إكراها، ثم جاء خلفه بعده فمنع المسلمين من التحدث باللغة العربية وقراءة القرآن... بل صدر بعد ذلك قانون عجيب يمنع المسلمين من الاغتسال، فهدمت الحمامات في المدن... ثم أعقبه قانون منع الزي العربي... ثم أنشئت هيئات كنسية ومحاكم التفتيش للبحث عن المسلمين الذين يبطنون الإسلام ويظهرون خلاف ذلك.. وبلغت حصيلة القتلى في تلك الحملة ثلاثة ملايين نسمة أحرق الكثير منهم بمجرد وجود مصحف في بيته...

ولما حاول بعض المسلمين الثورة على هذا الوضع سحقوا جميعا واستشهد منهم أزيد من عشرين ألفا، وقتلوا بأبشع أنواع القتل والهمجية والوحشية، وهتكت أعراض نسائهم وأطفالهم..

ولذلك قال الدكتور عبد الرحمن الحجي:

"واللّه لو علموا أن في عبادة الصلبان تمشية أمورهم لبادروا إليها، فنحن نراهم يستمدون النصارى فيمكنونهم من حرب المُسْلِمين، لعن اللّه جميعهم، وسلط عليهم سيفًا من سيوفه"[22].

ويضيف قائلا عن هؤلاء الأمراء: "وهكذا حكم الأندلس أمراء اتصف عدد منهم بصفات الأثرة والغدر، هانت لديهم معه مصالح الأمة، وتُركت دون مصالحهم الذاتية، باعوا أمتهم للعدو المتربص ثمنًا لبقائهم في السّلطة، ولقد أصاب الأمة من الضياع بقدر

ما ضيعوا من الحظ الخُلقي المسلم، اخرف هؤلاء المسئولون عن النهج الحنيف، الذي به كانت الأندلس وحضارته"اهـ

واستمر الصراع بين الطوائف واستمرت الخيانات، وتقديم البلاد للعدو، وكلما مات أمير من أمراء دويلة منها خلفه من هو أسوأ منه.

لمثلِ هذا يبكِي القلبُ مِن كُمدٍ

إن كانُ في القُلبِ إسلامٌ وإيمانُ

**15-الظلم:**

الظلم ليس سببًا من أسباب الهزيمة والسقوط فحسب، بل هو سبب من أسباب هلاك الأمم وسقوط الدول وانهيار الحضارات، وتغير الأحوال، ولهذا قال مؤرخنا الحكيم عبد الرحمن بن خلدون:"الظلم مؤذن بخراب العمران"[23]. وقال الإمام أبو العباس ابن تيمية -رحمه اللّه- في الفتاوى:"إن عاقبة الظلم وخيمة، وعاقبة العدل كريمة، وإن اللّه تعالى ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة"اهـ

فملوك الطوائف اجتمعت فيهم كل أنواع الظلم: ظلموا أنفسهم لما غرقوا في حب الدنيا وملذاتها وشهواتها... وظلموا ما بينهم وبين ربهم لما تقاعسوا وتقاعدوا عما افترضه عليهم من فرائض وأوجبه من واجبات، وحرمه من محرمات وفواحش وبخل وتبذير، وظلموا رعيتهم في الأرزاق وفي الحماية والدفاع عنها، وخانوا أرضهم لما قدموها سهلة لعدوهم.

وظلموا الأجيال قبلهم لما أضاعوا ما شيدوه وبنوه على مدار ثمانمائة عام، وظلموا الأجيال بعدهم لما لم يحافظوا على الأمانة ولم يؤدوها إلى أهلها...

**ومسك الختام:**

هذه أهم عوامل سقوط الأندلس وأهم سنن اللّه فيها، ولقد خضعت كل فتراتها لقانون اللّه الذي لا يخطئ، والذي تخضع له كل حركة وسكنة في هذا الكون الفسيح، وصدق اللّه: ﴿**وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ**﴾[الرعد: 13].

ورغم سقوط الأندلس في يد الفرنجة لكنها ستعود لنا يوما ما، يوم يأخذ المسلمون بسنن النصر وقوانينه فسيسترجعون كل بقعة أخذت منهم، وعلى رأسها الأندلس.

وقد يقول قائل: متى نصر اللّه؟ فنجيبه بقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**﴾ (محمد:7) وقوله: ﴿**وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾ [الحج: 40].

ومن سنن اللّه أن العاقبة للمتقين فإن كانت للباطل جولة واحدة فإن للحق جولات إلى قيام الساعة. قال اللّه تبارك وتعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ**﴾ [الأنبياء: 105].

ويقول سبحانه على لسان سيدنا موسى عليه السلام : ﴿**قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ [سورة الأعراف: 128].

وأكدها لنا ما جاءنا من المثاني: ﴿**تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ**﴾[ سورة هود: 49].

وإذا كانت العاقبة للمتقين كما أكدتها الآيات السابقة، فما السبيل إلى بلوغ موعودها؟

الهوامـــش:

(1) منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية، محمد أمزيان، ص189-190.

(2) وزر: الملجأ. لسان العرب، ابن منظور، 582/5.

(3) النجوة: المكان المرتفع الذي تَظنُّ أنه نجاؤك. انظر لسان العرب، 304/15.

(4) سنن أبي داود، كتاب الملاحم، باب تداعي الأمم على الإسلام، ح4297.

(5) التاط: أي التصق. انظر: أساس البلاغة، مادة: لوط، حرف اللام، ص773.

(6) المعجم الكبير، للطبراني، 162/10. قال أبو محمد عبد العظيم المنذري:"رواه الطبراني بإسناد حسن". الترغيب والترهيب، كتاب التوبة والزهد، 85/4.

(7) أخذوا بِالسِّنِينَ: أي المجاعة والقحط. فيض القدير شرح الجامع الصغير، زين الدين عبد الرؤوف المناوي،1053/1.

(8) سنن ابن ماجه، كتاب الفتن، باب العقوبات، ح4019، وقال الشيخ الألباني حديث حسن.

(9) مسند أحمد بن حنبل، 402/1.

(10) تفسير القشيري، 318/2.

(11) الإسلام وأوضاعنا السياسية، عبد القادر عودة، ص285.

(12) تفسير السعدي، ص141.

(13) حديث الثلاثاء، حسن البنا، إعداد: أحمد عيسى عاشور، ص413.

(14) سنن أبي داود، كتاب الإجارة، باب النهي عن العينة، ح3462، قال الألباني: حديث صحيح.

(15) في ظلال القرآن، 1618/3.

(16) مصرع غرناطة، شوقي أبو الخليل، دار الفكر، ص120.

(17) سقوط الأندلس: دروس وعبر، ناصر العمر، ص27.

(18) التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، ص211.

(19) نفح الطيب، 273/4 وما بعدها.

(20) دروس من غزوة أحد، عبد العزيز كامل، ص130.

(21) دولة الإسلام في الأندلس، محمد عبد الله عنان: ج7 ص257 وما بعدها.

(22) التاريخ الأندلسي، ص325.

(23) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، 39/1.